

بيت الدمية.. صفقة الباب التي هزت أوروبا

حكاية امرأة دمية تنتقل من كونها لعبة أبيها إلى لعبة زوجها



نورا.. «الأزوب» التي تستمتع بأن تجد من يداعب وبرها

تستخدم النهاية الأصلية كما هو الحال مع إصدارات الأفلام. قدمت المسرحية للمرة الأولى في «المسرح الملكي» في كوبنهاغن، في 21 ديسمبر عام 1879. وكتب عن أصالة العمل آنذاك الناقد الصحفي فولكستيس إيفيس «ليس في العمل جملة تعجب، أو تصعيد درامي أو قطة دمى، ولا ذرف دمعة واحدة». وبالطبع، قامت الدنيا ولم تقعد في المجتمع الدنماركي، كون المسرحية أثارت جدلاً واسعاً بين مؤيد ومعارض لموقف نورا. وبيعت جميع العروض بعد يوم الافتتاح، ما دفع المعنيين إلى تقديم العمل في المسرح الملكي بستوكهولم في السويد عام 1880.

ما زال العرض مستمرا

أما في ألمانيا فرفضت الممثلة هيدويغ تيمس رابي أداء دور نورا كما هو، واشترطت تغيير النهاية بحيث تقبل نورا، في مضمون حبكة النص، إعطاء زوجها فرصة ثانية بعد توسلاتها لجات إليه ليتوسط لها عند زوجها. وبدلاً من تدخله كتب المسرحية بعد مضي عام. وإن اختلفت النهاية ففي الواقع طلق فيكتور زوجته لورا، ووضعها في مصحة للأمراض العقلية، وبعد مضي عامين سألها العودة إليه وإلى أولادها. هذه المحنة دفعت لورا لتصبح كاتبة ذات مكانة مرموقة. إلا أن شهرتها كملهمة للمسرحية فاقت تميزها في ساحات الكتابة والإبداع. ولما شعر وكيل إيسون الألماني بأن التناسب مع المسرح الألماني اضطر إيسون إلى كتابة نهاية بديلة لتحظى الرواية بالقبول في ألمانيا. في هذه النهاية تذهب نورا إلى أطفالها بعد أن تتشاجر مع تورفالد، فتفترق بعد رؤيتهم، ثم يسأل الستار. وقال إيسون في وقت لاحق إن هذه النهاية عار على المسرحية الأصلية ويسميتها «الغضب البربري». معظم الطبعات اليوم

الاجتماعي والاستقرار المادي وباعتبار المرأة الكامل على الزوج، ففكر وأفعلاً، بصفتها عنصراً ضعيفاً. على الرغم من أن معظم النقاد اعتبروا الشخصية الرئيسية في العمل نورا، وبنوا حولها نظريات عن تعاطف إيسون مع المرأة ومناصرتها لها، كما هو الحال في الدراسة التي قدمتها الكاتبة لى فرحان الخليل، إلا أن توجه إيسون في عمله بعيد كل البعد عما افترضوه، إذ قال لدى تكريمه من قبل «نادي سيدات كريستيانا» الذي اعتبرته عضواته صديقاً منحازاً للدفاع عن حقوق المرأة «لم يكن كل ما كتبه بوعي قصدي. كنت كاتباً أكثر مني فيلسوفاً اجتماعياً كما يعتقد البعض. ما كتبه كان بدافع إنساني. كان هدفي وصف جانب إنساني يضيف إليه القارئ أو المشاهد مشاعره ومزاجه الخاص، تبعاً لشخصيته».

وتجدر الإشارة إلى أن إيسون قد استلهم قصة مسرحيته هذه من المحنة التي مرت بها صديقته لورا كيلر، التي لجأت إليه ليتوسط لها عند زوجها. وبدلاً من تدخله كتب المسرحية بعد مضي عام. وإن اختلفت النهاية ففي الواقع طلق فيكتور زوجته لورا، ووضعها في مصحة للأمراض العقلية، وبعد مضي عامين سألها العودة إليه وإلى أولادها. هذه المحنة دفعت لورا لتصبح كاتبة ذات مكانة مرموقة. إلا أن شهرتها كملهمة للمسرحية فاقت تميزها في ساحات الكتابة والإبداع. ولما شعر وكيل إيسون الألماني بأن التناسب مع المسرح الألماني اضطر إيسون إلى كتابة نهاية بديلة لتحظى الرواية بالقبول في ألمانيا. في هذه النهاية تذهب نورا إلى أطفالها بعد أن تتشاجر مع تورفالد، فتفترق بعد رؤيتهم، ثم يسأل الستار. وقال إيسون في وقت لاحق إن هذه النهاية عار على المسرحية الأصلية ويسميتها «الغضب البربري». معظم الطبعات اليوم

من حفل ساهر أدت فيه رقصة ساحرة تذكر بأجواء «سانديلا» وتلك الأجواء المخملية الساحرة، وبعد تعبيره عن سعاده بوجودها في حياته وحبه النقي لها وتجديده العهد بحمايته لها، يكتشف تورفالد بعد قراءة رسالة كروغستاد ما قامت به، فيعبرها خائفة، وبلا تمهيد يتهمها بقلة الخلق وانعدام القيم وبأنها مصدر الفضيحة التي ستمدم مكانته وحياته، ثم يامرها بتترك البيت كونها ليست بأمر تؤمن على تربية أبنائها. فجعت نورا برده فعله، وفقدت القدرة على الإبراك. وفي حالة الانهول تلك وصلت رسالة أخرى إلى الزوج، وما إن فتحها حتى انفجرت أساريره. إذ كانت تحتوي على صك الضمان الأصلي الذي حرره من عبء الفضيحة. وهنا تبدل موقفه وقال إنه عفا عنها وسامحها. لم تستطع نورا استيعاب هذا التناقض، وهي التي كانت تتوقع وقوفه إلى جانبها وتقديره لخسيتها من أجله، وما كان منها إلا أن قالت له «سأغادر البيت الآن». وحين توسل إليها أجايبته «أريد أن أعرف من أنا». ووصفت الباب خلفها، بعد خروجها لا يستطيع الزوج تورفالد تفهم وجهة نظر نورا، لأنه يتناقض مع كل ما عرفه عن عقل المرأة في حياته. وعلاوة على ذلك هو نرجسي، أي أنه من المستحيل أن يفهم أنه يبدو لها الآن كأناني ومخادع ويكثر للسمعة أكثر ما يكثر للأخلاق الحقيقية. نورا تترك مفاتيحها وخاتم زوجها، فيما ينهار تورفالد ويبدأ بالبكاء متحيراً مما يحدث له. تترك نورا المنزل وتغلق الباب وراءها لا تعلم ما إذا كانت ستعود أم لا.

النهاية العار

في هذا الصدد تقول الناقدة رشا المالح «كان لصفقة الباب تلك دوي ارتجت له أركان العالم، وأثارت مغادرة نورا البيت بعيداً عن زوجها وأطفالها وكل ما بنت عليه حياتها ثورة اجتماعية في أوروبا، على قيم الزواج التي كانت سائدة لدى الطبقة البرجوازية، والتي كانت محكومة بالظهر

«بيت الدمية» من المسرحيات الاجتماعية التي أراد إيسون من خلالها أن يكشف عصره ويظهر ما فيه من زيف وخداع، حتى قال عنه الناقد إيريك بنتلي «هذا هو إيسون الذي فضح أوروبا».

من أنا؟

تبدو المسرحية ذات الفصول الثلاثة في بدايتها عادية الأحداث والشخصيات داخل أي مجتمع برجوازي، فنورا متزوجة من هيلم من منذ ثماني سنوات ولديها ثلاثة أطفال. ونرى هذه المرأة المتزنة المشججة مع حياتها الزوجية فهي تحضر لعيد الميلاد وتبتم بإحضار هدايا وحاجيات الأولاد، كما تبدو محبة للمال وتعرف كيف تقنع زوجها بإعطائها المال فهي عصفورته وأرنهته تحمل وجهين: وجه المرأة التي تحب أطفالها وقادرة على إدارة منزلها وإطاعة زوجها، والوجه الثاني هو الطفلة التي تاكل البسكويت سرا أو تحب أن تكون هذه «الأزوب» التي تستمتع بأن تجد من يداعب وبرها.

هذا العام سيترقى زوجها في البنك الذي يعمل فيه، لذلك تشعر نورا بأنه يجب أن يمتدحوا قليلاً. ثم تعلن الخادمة عن قدوم اثنين من الزوار؛ السيدة كريستين لينده وهي صديقة قديمة لنورا، جاءت تبحث عن عمل، والدكتور رانك الذي انتظر في المكتب وهو صديق مقرب للعائلة. لقد مرت كريستين بأوقات قاسية منذ وفاة زوجها. وأوضحت نورا أيضاً أنهم قد مروا بظروف صعبة للغاية؛ فقد مرض زوجها تورفالد هيلم، وكان عليهم السفر إلى إيطاليا ليتلقى علاجه هناك.

ثم قالت كريستين إنه عندما توفت والدتها كان عليها رعاية إخوانها، ولكن الآن بعد أن كبروا تشعر بفراغ لا يوصف. ثم تعدها نورا بأن تتحدث مع تورفالد من أجل إيجاد عمل لها، فتخبرها كريستين برفق أنها مثل الأطفال، فتنسأ نورا، ثم تفصح عن أنها اقترضت المال من بعض المعجبين، من أجل علاج تورفالد، وقد أخبر تورفالد بأن والدها أعطاهما المال، ولكنها في الواقع نجحت في اقتراض المال بطريقة غير قانونية دون علمه. وطوال هذه السنوات كانت تعمل وتدخر المال لسداد هذا الدين.

نتيجة حياتها المبرمجة على مثل أفكار نموذجية تعيش أزمة حقيقية حين يخبرها كروغستاد الذي طرده زوجها من عمله في المصرف بأنه سيبتره من خلال كشف سرها على الملأ، إن لم يعد له وظيفته.

وهكذا، تنهار نورا وتفكر في الانتحار مرات عديدة، إذ كان أهون عليها أن تضحي بنفسها كي تجنب زوجها الفضيحة. وقبل أن تتاح لها الفرصة لتنفيذ غايتها، بعد عودتها وزوجها

منذ صدور هذه المسرحية حتى يومنا هذا لا يزال النقاد يقدمون دراسات وتحليلات حول حيكيتها ومضمونها وطبيعتها شخصياتها، وكل اجتهاد جديد يركز على اكتشاف رصيد هذا العمل والتعمق في عوالمه الغنية. باختصار إنها المسرحية التي هزت أركان المجتمع الغربي وعزت زيفه.

بأنسة، وفي هذه الفترة قطع كل صلة له بأسرته ولم يعترف بوجود أحد من أعضائها باستثناء أخته الصغرى، وإن القسوة التي قطعت صلته بأسرته هي بسبب الكبرياء الجريئة والحاجة إلى العزلة.

عاش إيسون الجزء الأكبر من حياته متنقلاً بين المدن، قلقاً وميلاً إلى العزلة. امتزج في كتاباته الشعري بالدرامي، مما جعل بعض نقاد عصره يحثرون في تصنيفه ويتناولون أعماله بشيء من القسوة فأثر ذلك على نفسيته وكذلك على حالته المادية، لكن ذلك لم يمنع مجبه من اعتباره شكسبير عصره.

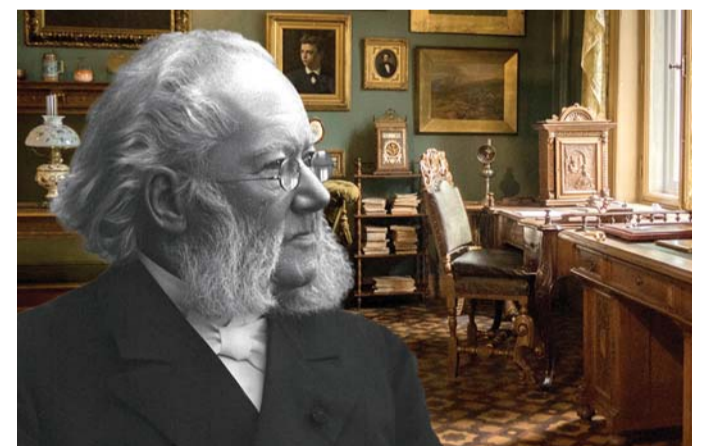
العزلة مصير وخيار وجودي قرره إيسون لنفسه كي يتمكن من رؤية هذا العالم على نحو أشمل، لذلك انطلق من روح الشاعر في داخله نحو المفكر الفيلسوف، ومن ثم سار في اتجاه الكاتب الدرامي الذي تتمثل مهمته في الصدمة. ولا شيء غير الصدمة.

«بيت الدمية» مسرحية إيسون التي كتبها عام 1870، أي في المرحلة الوسطى من حياته الفنية، كانت بمثابة الصدمة الكبرى والصرخة المديوية في محيطه الاجتماعي والأدبي، وسماها هو بآول مأساة حديثة من حيث تناولها لحكاية المرأة الدمية التي تنتقل من كونها لعبة أبيها إلى لعبة زوجها.

نورا» سيدة جميلة، أنيقة، ناعمة ومتقانية في خدمة بيتها كما أراد لها زوجها أن تكون. تبدو من الخارج أنها تملك حياة سعيدة وهادئة، لكن في الواقع هذا الهدوء يخفي وراء الكثير من الثورة الكامنة التي تنتظر أبسط احتكاك كي تنفجر وتتسعل كل ما كان يبدو ألفاً، هادئاً ووديعاً.

تخفي نورا عن زوجها حقيقة المال الذي اقترضته من أجل علاجه والسفر إلى جنوب البلاد. لكن عندما تتعدق الأمور ويكتشف زوجها الحقيقة تظهر حقيقة هو، وهنا تكتشف نورا حقيقة حياتها التي كانت تجهلها فتخلع ثوب الدمية التي أراد لها محيطها أن تكونها وتطبق باب البيت خلفها وتغادر في مواجهة مصيرها مخلقة وراءها كما هائل من الزيف، وكذلك الأسئلة المعلقة دون أجوبة.

«صفقة الباب» هذه سمعتها كل أوروبا الغارقة في زيف العلاقات البشرية، ووصل صداها إلى جميع الطبقات الغارقة في أوهام «الأخلاقيات الرفيعة» دون أن تدري أنها تتستر على الرذيلة وتقعن النفس بانها تعيش السلام والطمأنينة.



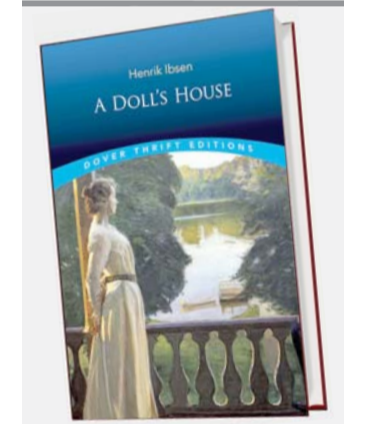
أبو المسرح الحديث وسيد الدراما الواقعية



هذه النهاية عار على المسرحية الأصلية

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

«بيت الدمية» للنرويجي هنريك إيسن، الملقب بـ«أبي المسرح الحديث» وسيد الدراما الواقعية، أدرجتها اليونسكو منذ عشرين عاماً ضمن سجل الأعمال الخالدة لما تركته من أثر اجتماعي في وضعية المرأة الأوروبية التي ظلت تعاني على مدى عقود طويلة من سطوة التقاليد البرجوازية التي تلزم المرأة بطاعة زوجها إلى حدود التماهي والذوبان، والتستر على جميع العيوب والنقص. «إننا معشر البشر مخلوقات ممتدة النظر من الناحية الروحية. نرى الأشياء أكثر وضوحاً عن بعد، فالتفاصيل تتركنا، وإن خير وصف للصفيف إنما يقدمه المرء في الشتاء».



«بيت الدمية»، مسرحية إيسن التي كتبها عام 1870، كانت بمثابة صدمة كبرى وصرخة مديوية في محيطه الاجتماعي والأدبي

بهذه العبارة يقدم الكاتب النرويجي هنريك إيسن (1828 - 1906) نظريته للكتابة والحياة بصفة أعم، أي ضرورة البحث عن مسافة بيننا وبين الأشياء كي نتمكن من معرفتها وتوصيفها.

شكسبير عصره

كان إيسن ابناً لعائلة فقيرة، عاش في بلدة صغيرة بالنرويج. وعندما بلغ السادسة عشرة التحق بصيدلية في بلدة ساحلية ليتلقى أصول مهنة الصيدلة، فأمضى ستة أعوام في عزلة